مناجاة الطبيعة

في الحديقة

نزلت صباح يوم الى الحديقة وبعد ان دارت فيها حول البيت جلست في ظلال شجرة واستسلمت الى التفكير . فكرت في حياة النبات وتركيبه وخواصه فتبين لي اوجه شبه بينهُ وبين الحيوان حتى قلت لولا امتياز هذا بالتنقل لكانا نوعاً واحداً ولو اختلفا في الجنس

وبينما انا مستغرق للطبيعة سمعت صقاع الديك وكأنهُ كان لي بمثابة الدعوة الى تفقد الحيوانات الداجنة . وكأن ما رأيتهُ وسمعتهُ من هذه الحيوانات وضوضائها حينما اقبلت عليها كان من قبيل الترحيب والتأهيل . فما بين قوقاء الدجاج وهديل اليمام وتغريد العصافير ونقنقة الحجل كان يعلو حفيف اجنحة الطيور الطليقة ودبيب ارجلها وقد هبت ترفرف وتحوم حولي كما تحوم الفراخ حول الحاضنة

ما لهذه الطيور فرحى مستبشرة ؟ وما للحبيبة منها وثابة على ابواب اقفاصها ؟

— انها تترقب الطعام . وكأني بهِ في نظرها غاية الحياة !

تركتها تأكل وقصدت الارانب لاطلقها من قفصها . ما اجملها ! ارانب اناطولية لها على بياضها النقي عيون عقيقية هي بمثابة الخال في وجنات الحسان

انظر الى الذكر منها بعد ان فتحتُ القفص كيف يقفز يميناً وشمالاً كأنهُ وجل وهو في الحقيقة جذلان بحريتهِ شأن كل المجاذيع[1] اذا اطلقت

واما الانثى فها هي هناك تركت اللعب واللهو للذكر وثابرت على حفر نفق منظراستر عى فكري واستجمع حواسي ولاسيما اذ تذكرت ما تفعلهُ انثى الارنب قبيل الولادة من نتف وبرها واعداده فراشاً لاولادها فكرت بذلك حتى كدت اسمع وحي الطبيعة وهي تقول : « ارأيت كيف ان الام تنصرف عن ملذاتها الى العناية باولادها حتى قبل ان تلدهن واما الوالد فتهمك في ذاتيتهِ ساع وراء مسرتهِ ؟

ان الوالدين وان اشتركا بمادة المولود فالذكر منهما يشترك في مواطن اللذة فقط واما المتاعب قبل الوضع وبعدهُ فهي نصيب الانثى . ولذلك كان حب الام

(١) المجذوع الدابة المحبوسة عن غير علف

لاولادها حبًّا طبيعياً اصيلاً . واما حب الاب فعرضي ينشأ ويترعرع في اثناء التربية بدليل ان ذكور الحيوانات التي لا تشترك في تربية اولادها لا تشعر بالحنو عليهن وقد تأكلهن

هذا ولو ارجعنا مصدر الحنو الوالدي الى التربية وحدها لكان اشفاق الام وعطفها على ولدها قبل الرجل ناتجاً عن مباشرتها تربيتهُ في احشائها قبل ان يظهر للوجود . وبعدُ فما غلِط الاقدمون اذ جعلوا الام مصدر النسب فانتسبوا لامهاتهم وليس لابائهم، فما غلطوا لان الام هي الوالدة مباشرة وهي المربية »

وكان تفكيري في هذا الموضوع وما بهِ من علائق الصغار بوالديهم محوّلاً خاطري الى الفراخ فتحركت بي عواطف الشفقة لاطعامها فقصدتها ولكن أين تلك الفراريج فمهدي بها في هذا القفص قبل اسبوع ؟

اني ارى مكانها زوجاً من الحجل يعقوباً وسلكة

وما بال الحجلين يدفان باجنحتها وارجلها ويقفزان على شبك الباب ؟ فان كان الطعام غاية الحياة في نظر الحيوان كما حسبت فهذه ارض القفص مغطاة بهِ

كلاَّ بل ان الحرية والاستقلال اقصى امانيّ الحيوان واذا اغتصبهما منهُ غاصب فلا ينفك دقيقة عن السعي لاستردادها واما القفص وان حوى الجنة فهو سجن ينظر اليهِ كما كانت تنظر بدوية هارون الرشيد الى نعيم القصور فتذكر ابداً عهد الصباءة والخيام

وان الحيوان وان قلنا بانهُ غير عاقل فهو في عقلهِ الصغير او بالسائق الطبيعي يأتي اعمالاً ناجحة ما كان التفكير الكثير الاَّ ليثبطنا عنها نحن اصحاب العقول

افلا ترى الطائر اذا حبس كيف يثابر طيلة سجنهِ على نقر سلك القفص في كل جانب باحثاً عن منفذ لهُ ؟ وان تجربة يوم وشهر وسنة ولئن لم تنجح لا توهن عزمهُ ولا تحولهُ ابداً عن غايتهِ ؟ ثم ألا ترى كيف انهُ بفضل ثباتهِ يفوز احياناً كثيرة بأمنيتهِ ؟

وأما نحن البشر العقلاء فانا متى فرغنا من القياس وتراءى لنا بان قوتنا اضعف من ان تمكننا من الحصول على امنيتنا اهملنا السعي فكان نصيبنا الحرمان الدائم

وبعدُ فأين تلك الفراريج التي كانت في قفص الحجل ؟

ها هي تركض مجدفة باجنحتها نحو القفص وقد بلغت بابه وشرعت تحاول

الدخول اليهِ فتنقرهُ مرة وتذهب وتجيء امامهُ مرة اخرى بينما يعمل الحجلان قبالتهما على الخروج منهُ !

الله الله ما هذا التناقض في الحياة ؟ فاذا كانت الحيوانات تقدر نعمة الحرية والاستقلال وقد حظيت الفراخ بهذه النعمة فما لها تحن الى حبسها الاول ؟ لماذا ؟

ها قد ادركتُ السر اطلقت الافراخ من القفص فخرجت الى ميدان الكسب الذاتي بعد ان كان يؤتى بالطعام اليها جزافاً خصيصاً ولما لم تقوَ على مزاحمة سائر الدجاج تحملت الجوع ونكد العيش اياماً ثم حنت الى حبسها المشبع

وما الحيوان الأعجم الانسان في حب التنقل والعطف على الجديد : افما ترى المرأة في الغرب عمّالة على هتك خدرها ولو كان فيهِ الراحة والرخاء رغبة في مزاحمة الرجل على الكسب ؟

انها ترى حقاً ان لا سبيل للاستقلال الذاتي ما زال الرجل هو الكاسب المنفق عليها فتود بذلك ان تنال استقلالها العائلي بواسطة استقلالها الكسبي

ولكن ألا ترى معي انها ستحنّ الى حياتها الاولى حياة العائلة حنو تلك الفراخ الى كنها ؟

بلى وان الذي سيتحرر هو الرجل هو الرجل الذي يخضع الآن لانوثة المرأة فيفرش لها قلبهُ . انهُ سيتحرر من عبوديتها على قدر ما تترجل رغبة في مزاحمتهِ حتى انهُ سوف يجد بضعفها في اثناء ذلك التنازع الكسبي مجالاً اوسع للسيادة عليها وحينئذٍ تكون المرأة قد اشترت استقلالها العائلي بعبوديتها في المتجر والمصنع والمزرع. وحينئذٍ لا بدع ان تندم على ما فرّطت بهِ فتحن الى خدرها الاول على انها سوف تكون تجربة مفيدة تجربة فيها موعظة للرجل كما فيها عبرة للمرأة حتى اذا عادت الحياة العائلية المعروفة فان الرجل الذي يكون قد اصابهُ قسط من العذاب في اثناء انحلالها لا يعود مرة اخرى الى احراج المرأة بل يعاملها معاملة الرفيقة

وكأني كنت وانا مستغرق في هذا التفكير غائباً عن الوجود فلما ضربت الساعة تسعاً انتبهت فهرولت الى غرفتي لتبديل ثوبي والتوجه الى تجاربي فانقطع عني وحي الطبيعة على اثر ذلك . ولم اعد ارى رواية الحياة . ولا بدع فمن العادة ان لا يرى الممثلون روايتهم التي يمثلونها . وما نحن في معترك الحياة الا ممثلو تلك الرواية ذات الفصول الضافية

بيروت محمد جميل بيهم